

## تشریف و تکلیف

### بقلم الدكتور طه حسين

لست أدري أيتاح لهذا الحديث أن يقرأه رئيس الجمهورية وقائد الثورة اللواء أركان حرب محمد نجيب . وأنا مع ذلك أتمنى أن يقرأه فإني لم اكتبه إلا مفكرا فيه أعمق التفكير ومكبرا له أصدق الإكبار، وموضوع هذا الحديث يسير جدا قرأته الآن في صحيفة إيطالية بعيدة الصوت واسعة الانتشار . وهي صحيفة الأحد التي تصدرها الكوريري دلا سيرا ليقراً فيها الناس الأخبار التي يجب أن يقرأوها حين تحتجب الصحف في هذا اليوم من أيام الأسبوع.

فقد ذهب ممثل هذه الصحيفة إلى مراكش وزار مدنها الكبرى إثر الأحداث التي وقعت فيها أخيراً وتحدث إلى قرائه بما رأى وما سمع ، وكان بعض ما روى لقرائه مما رأى هناك موضوعاً لهذا الحديث . فهو قد رأى أن صور السلطان الذي أقصاه الفرنسيون عن وطنه قد نزعت من مكانها وصادرتها الشرطة ولم توضع مكانها صور السلطان الجديد وإنما ترك هذا المكان خالياً وإلى جانبه صور لقائد الثورة ورئيس الجمهورية المصرية اللواء أركان حرب محمد نجيب .

وليس يعنيني الآن ولا يعنى قراء الأهرام من مقال الصحفي الإيطالي إلا هذا النبأ فنحن نقرأ أنباء مراكش في الصحف العالمية على اختلافها مفصلة مرة ومجملة مرة أخرى صادقة أحياناً مغالية في كثير من الأحيان .

ولست أدري أيشعر القارئ المصري بما شعرت به حين قرأت هذا النبأ وهو

الفخر المؤلم والسرور الحزين ، وأي فخر يجده المصري اعرق في القلوب اثرا ، وأبعد في النفوس صدى ، من هذا الذي يجده حين يقرأ في صحيفة أجنبية لا تتملق رئيس الجمهورية المصرية لأنها ليست في حاجة إلى أن تتملقه ولأنها لا تنتظر منه خيرا ولا تخاف منه شرا إن صورة هذا الرئيس قد وضعت إلى جانب صورة السلطان المنفى في أسواق الأحياء الوطنية من مدن مراكش وحوانيتها فلما نفيت صور السلطان كما نفى السلطان نفسه بقيت صورة نجيب رمزا لما يحتاج المراكشيون إليه من العزاء ورمزا كذلك لما يملأ قلوبهم من الأمل ، وأي سرور يجده القارئ المصري يعدل هذا السرور الذي يجده حين نعلم أن رئيس الثورة التي حررت مصر من الطغيان وتريد أن تحررها من

الاستعمار ليست رمزا للتحرير في مصر وحدها ولكنها رمز للتحرير في البلاد الأخرى التي تشقى بالاستعمار وطغيان الأجنبي وخيانة بعض المواطنين .

فخر يملأ النفوس بهجة ورضى لولا إنه مشوب بحزن يحول بينها وبين الاستمتاع بتلك البهجة وهذا الرضى. فهؤلاء الملايين من المراكشيين الذين استبقوا صورة نجيب حين نذعت منهم صورة السلطان الذي يؤثرونه بالحب ويختصونه بالولاء والوفاء يجدون في نفوسهم ما لا نكاد نتصوره من البؤس والخزي والشقاء . كانوا يرون أنفسهم أحرارا فأظهر الاستعمار لهم أن حريتهم لغو من اللغو ووهم من الوهم. وكانوا يرون أنهم كرام. فأظهر الاستعمار لهم أن كرامتهم لا تثبت أمام المدفع ولمترايوز. وكانوا يرون أن لهم سلطانا يمثل حريتهم وعزتهم وكرامتهم فعدا الاستعمار على هذا السلطان فأقصاه عن وطنه واتخذة واتخذ بنيه وأسرتة كلها رهائن عنده في جزيرة من جزر البحر ليس

يدرى أيقم فيها إقامة المستقر أم ينقل منها إلى حيث لا يعلم ولا يريد.

ثم لم يقص الاستعمار هذا السلطان وحده إنما أقصى معه صورته التي كان المراكشيون يجدون فيها العزاء والأمل حين تثقل عليهم وطأة الاستعمار. وأي سرور يجده القارئ المصري يعدل هذا السرور الذي يغمر القلوب حين نقرأ في هذه الصحيفة الأجنبية أن صورة السلطان الذي كان المراكشيون يحبونه قد أزيلت من أماكنها وأن صورة نجيب قد بقيت في مكانها ترد على المراكشيين ما فقدوا بنفي سلطانهم ونزع صورته من العزاء والرجاء .

ولكنه سرور يشوبه ظلم لاذع وحزن ممرض لأن نجيباً بعيداً عن هؤلاء المراكشيين، تستطيع صورته أن تقول لهم ما تشاء في صمتها الرائع البليغ، ولكنهم في حاجة إلى أكثر مما يستطيع الصمت أن يقوله. هم في حاجة إلى الكلام الحى الذى يحيى القلوب، وهم في حاجة إلى العمل الحى الذى يميت اليأس ويمحو القنوط ويعيد إلى النفوس حب الحياة والثقة بأنها خليفة أن يحيها أصحابها لأن فيها أكثر من الأكل والشرب والنوم فيها الشعور بأن العزة ليست وهما وفيها الشعور بأن الكرامة ليست أمنية ، وفيها الثقة بأن هذه القيم كلها حقائق موجودة يستطيع الناس أن يستمتعوا بها ويجنوا ثمرها فيقولون دون أن يأخذوا بما يقولون ويعملون وينشطون مطمئنين إلى أنهم سينعمون بما يؤتى نشاطهم من ثمر لا يستأثر به من دونهم طاغ ولا باغ ولا مستعمر ولا متجبر.

هؤلاء المراكشيون الذين ينظرون إلى صورة نجيب يحتاجون إلى أن يروه وإلى أن يقولوا له ليشعروه بما يجدون من ألم وإلى أن يقول لهم ليشعروهم بما

يملاً نفسه من أمل وثقة بأن الاستعمار إلى زوال وبأن الشعوب المستضعفة قد  
آن لها أن تقوى وتكرم وتعز على نفسها وعلى الناس، ولكن أين هم من نجيب  
أو أين نجيب منهم!

بهذا الفخر والسرور وبهذا الحزن والأسى شعرت حين قرأت ما قرأت في  
هذه الصحيفة الإيطالية . وما أشك في أن إكبار المراكشيين لصورة نجيب  
تشريف لهذا الرجل الذى أنقذ وطنه من بعض الشر ويريد أن ينقذه من الشر كله

وما أشك أيضا في أن نجيبا سيفهم هذا التشريف وحده فهو أبعد الناس عن  
الإثارة وابعضهم لها ولكنه سيرد هذا الشرف الى وطنه أولا ، فهو الذى أنشأه  
وبعث فيه روحه القوى الذكي ، ورفعته الى حيث هو الآن وسيرد هذا الشرف  
الى أعوانه الذين جاهدوا معه ويجاهدون ليخرجوا مصر من الظلمة الى النور  
ومن الضعف الى القوة ومن الهوان الى العزة والكرامة .

وما أشك أيضا في إن نجيبا سيفهم هذا التشريف كما فهمته ، وكما يجب أن  
يفهمه المصريون جميعا وكما ينبغي أن يفهمه الرجل الذى يجد في نفسه شعور  
الرجولة والمروءة . ذلك أن التشريف في نفسه ليس كلاما يرسل إرسالا ولا ثناء  
يكال كيلا ولا تمجيذا لا يتجاوز إرضاء من يساق إليه ، وإنما التشريف تكليف  
قبل كل شئن هو مطالبة بأداء الواجب كما ينبغي أن يؤدى الواجب كاملا غير  
منقوص .

إنما المنافقون والمراؤون هم الذين يمدحون لا يريدون من المدح إلا رضى  
هذا الذين يمدحونه عنهم وعنايته بهم وعطفه عليهم فأما الصادقون المخلصون

الذين لا يريدون بأقوالهم ولا بأعمالهم نفاقا ولا رياء ولا تحقيق منفعة عاجلة لأشخاصهم ، فإنهم حين يشرفون من يشرفون يعترفون له ببعض فضله ويطالبونه بأن يضيف فضلا إلى فضل . يسجلون له بعض إحسانه ويلحون عليه في أن يضيف إحسانا إلى إحسان يقدرون له ما فعل و ينتظرون منه أن يفعل أكثر مما فعل على هذا النحو فهمت تشريف المراكشيين لنجيب . وما أشك في أنه يفهم تشريف المراكشيين له على هذا النحو ، هم يحمدون له ما فعل في وطنه و ينتظرون منه أن يمضى في الطريق التي سلك وأن يتم ما بدأ بالقياس إلى وطنه وهم يعرفون أن مصر وطن عظيم وأن نجيب رجل عظيم وأن عظمة الأوطان والرجال تنفى الأثرة أشد النفي . فالوطن العظيم لا يؤثر نفسه بالخير من دون

غيره من الأوطان والمواطن العظيم لا يؤثر نفسه بالخير ولا يؤثر وطنه بالجهد وإنما يفيض من شدة وجده و حبه للخير على كل من يحتاج إلى المعونة والتأييد .

إن في نفوس المراكشيين الآن عقدة أليمة يجب أن نعينهم على حلها ، لأننا وجدنا هذه العقدة في أنفسنا وهي عقدة فيها كثير من الخزي وكثير من الذل لأنهم ظلموا في وطنهم وأوذوا في كرامتهم وأكرههم المستعمر لأنهم لا يملكون من أمرهم قليلا ولا كثيرا . فمن الحق علينا جميعا أن نرد عليهم شيئا من ثقة ليعلموا وليخلصوا من هذه العقدة وأن نشعرهم بأن النوب تنوب وبأن الخطوب تلم ولكنها لا تلبث أن تزول وإنما هي الغمرات ثم ينجلين ، كما كان يقول قادة المسلمين حين كانت تلم بهم الأزمات أيام الفتح .

يجب أن نشعر المراكشيين بأنهم لا يشقون وحدهم بما نزل بهم من مكروه وإنما يشقى به معهم إخوانهم في اللغة والتاريخ والدين.

وأنا واثق بعد هذا بأن تألب الأمم القوية على الأمم الضعيفة لن ينفع الأقوياء ولن يضر الضعفاء . فقد تغيرت حياة الناس وتغيرت الظروف المحيطة بهذه الحياة وأصبح من الحق الذي ليس فيه شك أن الكرة الجامحة لن تغنى عن أصحابها شيئاً وأن الشعوب إذا أحست حقوقها وطالبت بها لن يرد لها شيء حتى تظفر بهذه الحقوق .

يجب أن يشعر المصريون جميعاً بمثل ما يشعر به رئيس الجمهورية من أن تشريف المراكشيين لشخصه إنما هو تشريف لوطنه ومن أن هذا التشريف تكليف لنا أن نعمل ما نستطيع لمواساة إخواننا على ما أصابهم من البأساء والضراء وأن نكون أهلاً لحسن ظنهم بنا وصدق رأيهم فينا.

طه حسين

الأهرام ٤ سبتمبر ١٩٥٣ .